رحلته الطويلة بمراحلها المتصلة ، فالبارودى لم يكن صورة من هذه الحركة الطبيعية للتطور ، وإنما كان صورة متفردة وتبت به وثبة واسعة عادت به إلى أصوله الأولى وتوابته القديمة وحققت له عودةإلى جذوره الأصيلة الضاربة فى الأرض الطيبة التى أنبتت الشجرة المباركة ، فظهور البارودى بهذه الصورة التى تأخذ شكل الثورة والانقلاب دون مقدمات لها ، أو إرهاصات تبشر بها يرجع ـ فى رأيى إلى العبقرية الشخصية التى لا تزال حتى اليوم سراً مجهولا على الرغم من تعدد المحاولات لتفسيرها ، وإن لم يمنع هذا من وجود عوامل مهيئة لها تقف وارءها . ومن الحق أننا نستطيع أن نرد هذه الظاهرة إلى أكثر من سبب ، ولكن يظل السؤال واردا : لماذا البارودى بالذات من بين شعراء عصره ؟ ولماذا تأخر ظهوره هذه القرون المتطاولة منذ أبى العلاء خاتمة القمم التى ارتفعت على طريق الشعر العربى ؟

ظهر البارودى وكأنه المهدىّ المنتظر الذى طال انتظاره ، ليكون بحقّ رائد المدرسة الإحيائية فى الشعر الحديث . ولكن الحقيقة أنه لم يكن رائد الشعر العربى الحديث فحسب ، وإنما كان قبل ذلك صاحب ثورة التحرير والتصحيح التى حررت هذا الشعرمن قيوده وأغلاله التى كبّله بها شعراء القرون الثمانية التى سبقته ، وصححت مساره حين ردته إلى مجراه الطبيعى الذى شقه رواده الأوائل ، وهذا هو دوره الأساسى فى تاريخ الشعر العربى الحديث .

والبارودى بهذا الدور الثورى من أجل التحرير والتصحيح يُعَدّ صورة أخرى من المتنبى عبقرى الشعر العربى القديم ، وصاحب الثورة الأولى التى شهدها الشعر العربى فى القرن الرابع ، والتى ردت النهر عن مجراه الصناعى الذى شقه شعراء مدرسة البديع إلى مجراه الطبيعى الذى كان يندفق فيه من قبل، بعد أن كانت مدرسة البديع قد استنفدت أغراضها بعد قمتها الشامخة أبى تمام ، ومن هنا كنت أرى أن أهمية المتنبى فى تاريخ الشعر العربى ترجع